



مجلتہ

علوم من اللغة والأدب

مجلة علمية محكمة ربع سنوية تصدر عن قسم اللغة العربية

دلالة البحر في شعر إدريس جماع

العدد الخامس
يناير ٢٠٢٣



مجلة علوم اللغة والأدب مجلة علمية محكمة ربع سنوية تصدر عن قسم اللغة العربية العدد الخامس يناير ٢٠٢٣



الترقيم الدولي الموحد للطباعة 5363 - 2812
الترقيم الدولي الموحد الإلكتروني 555X - 2812

Dr. Binibrahim Archive



دلالة البحر في شعر إدريس جماع

نوع المستند : المقالة الأصلية

المؤلف

✉ سعد العاقب

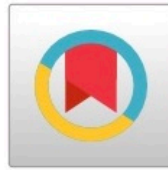
جامعة الخرطوم

10.21608/MALA.2022.182005.1111 

المستخلص

دلالة البحر في شعر إدريس جماع، دراسة تتبعت فيها المواضع التي ذكر فيها إدريس جماع البحر، والماء ومن ثم دلالاته المعنوية في شعره، ولا ينفصل البحث عن دراسة الظواهر الطبيعية في دواوين الشعراء، وهدف البحث إبراز هذه الجوانب الأدبية المهمة، فالبحر كغيره من ظواهر الطبيعة، يدخل في الشعر، قم يتسع معناه ودلالاته عن الوصف المجرد إلى دلالات تقترب بأحوال الشاعر النفسية، والجو المحيط بالنص، وقد وجدت تشابهاً بين جماع وشعراء آخرين في وصف البحر، حيث كانت الدلالة متشابهة بينهم، ومن أهم دلالات البحر التي وجدتها في شعر جماع، شاعرية البحر، ودلالة القلق والاضطراب، ودلالة الخوف والمجهول، أما المنهج الذي اتبعته في الدراسة فهو المنهج الوصفي التحليلي، وأهم نتائج البحث، أن إدريس جماع، أكثر من كلمة الموج وهي من لوازم البحر، وأن دلالة القلق والاضطراب في البحر تناسب نفسية الشاعر.

المجلد 5، العدد 5 - الرقم
المسلسل للعدد 5
يناير 2023
الصفحة 391-425



دلالة البحر في شعر إدريس جماع

إعداد

د/سعد عبد القادر العاقب سعد

جامعة بحري، كلية اللغات، قسم اللغة العربية

Hajsaad4444@yahoo.com

دلالة البحر في شعر إدريس جماع

د/سعد عبد القادر العاقب سعد

جامعة بحري، كلية اللغات، قسم اللغة العربية

Hajsaad4444@yahoo.com

ملخص البحث:

دلالة البحر في شعر إدريس جماع، دراسة تتبعت فيها المواضيع التي ذكر فيها إدريس جماع البحر، والماء ومن ثم دلالاته المعنوية في شعره، ولا ينفصل البحث عن دراسة الظواهر الطبيعية في دواوين الشعراء، وهدف البحث إبراز هذه الجوانب الأدبية المهمة، فالبحر كغيره من ظواهر الطبيعة، يدخل في الشعر، قم يتسع معناه ودلالاته عن الوصف المجرد إلى دلالات تقترب بأحوال الشاعر النفسية، والجو المحيط بالنص، وقد وجدت تشابهاً بين جماع وشعراء آخرين في وصف البحر، حيث كانت الدلالة متشابهة بينهم، ومن أهم دلالات البحر التي وجدتها في شعر جماع، شاعرية البحر، ودلالة القلق والاضطراب، ودلالة الخوف والمجهول، أما المنهج الذي اتبعته في الدراسة فهو المنهج الوصفي التحليلي، وأهم نتائج البحث، أن إدريس جماع، أكثر من كلمة الموج وهي من لوازم البحر، وأن دلالة القلق والاضطراب في البحر تناسب نفسية الشاعر.

كلمات مفتاحية، البحر: دراسة تتضمن مظاهر الماء، إدريس جماع:

شاعر سوداني، لحظات باقية، ديوان الشاعر إدريس جماع.

Abstract:

The Implication of the Sea in the Poetry of Idris Jamma'

The present study follows the places in which Idris Jamma' mentioned the sea, and thus, its semantic implications on his poetry, and the study is also concerned with the natural phenomena in the poetry collections of poets. The study aims at highlighting these important literary aspects, as the sea like other natural phenomena, is dealt with in poetry, and its meaning may expand to include not only the mere description but also the implications related to the psychological wellbeing of the poet and the atmosphere surrounding the text. The study have found similarity between Jamma' and other poets in the description of the sea in that its implication is similar between them, and among the most important sea implications in which I have found in the poetry of Jamma' are the poetic nature of the sea and the implication of anxiety and disorder and of the fear of the unknown. The study has adopted the descriptive analytic method, and the most important findings are that Idris Jamma' mentions the word "wave", which is connected to the sea, abundantly, and that the implication of anxiety and disorder fits the poet's psychological state.

مقدمة:

هذه دراسة لظاهرة طبيعية معتادة للعين البشرية، لكنها ذات أثر معنوي عميق في نفوس الشعراء، فالبحر من مظاهر الطبيعة التي علقت بنفوس البشر بقوة، وقد اخترت ديوان الشاعر إدريس جماع ودرست تأثير البحر في نفسية الشاعر، والمعاني الشعرية التي اقترن بها البحر، اعتمادا على نفسية الشاعر المتأمل لمشاهد الطبيعة، والتشابه بين تقلبات الطبيعة وبين نفسية الشاعر وعواطفه.

تتخصر الدراسة في الأبيات التي ورد فيها ذكر البحر وما يلزمه من ألفاظ، ومن ثم النظر في دلالة تلك الألفاظ باستصحاب جو القصيدة، وكيفية توظيف الشاعر للفظ ليعبر به عن الحالة النفسية التي تنتابه، والخيال الذي يصور به البحر معنويا، لينقل صورة البحر المادية المنظورة إلى صورة شعرية خيالية تخالف ما اعتادته العين المجردة في النظر إلى البحر.

لا توجد دراسة سابقة، لكن أشارت الدراسة أيضا إلى بعض الحالات المشابهة لحالة إدريس جماع في التعبير بصورة البحر والماء، وتخيل ما وراءه من الدلالات والمعاني، حيث وردت بعض النصوص المشابهة، وهي نصوص عبر فيها شعراؤها عن أنفسهم وعواطفهم بصفات البحر والموج، فكانت دلالة المجهول من أوضح ما ذهبت إليه خواطر أولئك الشعراء في نظرتهم للبحر، باعتباره مكانا محسوسا يخفي في قعره وسطحه خواطر تنبعث في نفس الشاعر، ويبرز في هذا السياق تأثير المكان في الشاعر، فالبحر كغيره من الأمكنة مبعث لكثير من الآثار النفسية التي تؤثر في معاني الشعر، وقد درس المحدثون هذه الظاهرة بمعايير النقد الحديثة، فاطّردت قاعدة التشابه بين الشعراء في وصف البحر مقترنا بالحالة الشعرية، قسمت

الدراسة إلى ثلاثة محاور، وهي: شاعرية البحر، ودلالة القلق والاضطراب،
ودلالة الخوف والمجهول.

الدراسة:

الماء مظهر طبيعي عميق التأثير في النفس البشرية وقديما قيل (إنه لم يُسْتَدْعَ شارد الشعر بمثل الماء الجارى والشرف العالى والمكان الخضر الخالى).⁽¹⁾ وفي هذا القول إشارة إلى الشاعرية التي يبعثها الماء في نفس الناظر إليه، والبحر ماء يجذب بمشهدة نفوس الشعراء، وإن لم نجد قصائد من الشعر القديم تصف البحر إلا في أبيات تعرض لصاحبها في القصيدة، وقد أشار بعض الباحثين حديثا (إلى عدم وجود قصائد كاملة خاصة بالبحر عند العرب، بل كانت أشعارهم، ووصفهم له وتشبيهاتهم ضمن قصائدهم الغزلية، والقصائد الخاصة بالمديح والفخر وغيره من الأغراض)⁽²⁾

اقترن البحر بالمهابة منذ زمان قديم، فالإنسان ينظر إلى الامتداد اللانهائي للماء أمامه، فتتبعث في نفسه خواطر شتى متضاربة، وهناك إشارة إلى مهابة البحر وغموضة في كتب القدماء، كقول ابن قتيبة الدينوري: (حدثني محمد بن عبيد عن معاوية عن أبي إسحاق عن محمد بن عجلان عن عمرو بن شعيب قال: أراد عمر أن يغزي البحر جيشا، فكتب إليه عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين، البحر خلق عظيم يركبه خلق ضعيف دود على عود بين غرق وبرق، قال عمر: لا يسألني الله عن أحد حملته فيه)⁽³⁾ وقيل أيضا: (حدث عن البحر ولا حرج، وعن بني إسرائيل ولا حرج، وعن معن ولا حرج)⁽⁴⁾.

سمات البحر التي يختص بها من غموض وامتداد شاسع وقعر مجهول مظلم، شوقت الإنسان إلى معرفته، فذهب الخيال الإنساني بعيدا مع البحر، لذلك تجد الشعراء يتأملون البحر ويسمون شعرهم بالخيال الذي يهيمن معه حين ينظرون إلى مشهد البحر نظرة عميقة، (وتعد صورة البحر في الشعر العربي من المكونات المهمة المرتبطة بالخيال الشعري قديما وحديثا، فما

زالت صورة البحر تفتن القارئ وتغريه لاستكشاف مخزونها المعرفي وأنساقها الثقافية المضمرة، وعلاقاتها المكانية المرتبطة بموضوعات التيه والنفي والمغامرة والعودة والانتماء والوجود، وغيرها من الدلالات والأبعاد التي اكتتفتها مكانية البحر في متن النص، ومثلما ربط الشعراء هذه الصورة المكانية بالرحلة والتأملات، فإنهم ساقوا لها في مختلف تصوراتهم أصول^١ مقدسة استمدتها الخيال الشعري من المصادر التوراتية والقرآنية، لأنها في هذا الجانب ارتبطت بمفهوم الخروج والعودة باعتبارها أفعال^٢ مقدسة محملة بفكرة الوطن والأرض في أبعادها الإنسانية^(٥)، ويمكن النظر في جزء من قصيدة لخليل حاوي:

الوجه السرمدى

عشت في حنوة بيت، ما وقاك

أنه بيت على الصخر تعمر،

أن خلف الباب،

في صمت الزوايا

يحفر الموج، وتدوي الهمهمه

أن في وجهك آثارا

من الموج، وما محى، وحفر،

وأنا عدت من التيار وجها

ضاع في الحمى،

وفي الموج تكسر،

بعضنا مات، ادفنيه، ولماذا

نعجن الوهم ونطلي الجمجمة؟⁽⁶⁾

لا يخفى تخيل الشاعر في هذا النص لما يتصل بالبحر من صفات، ثم مزج الشاعر هذه الصفات بانفعالاته، واتخذ من البحر دليلاً على الغربة والعزلة والبعد والمنفى والسفر وغير ذلك مما يبعث القلق في النفس.

ليس البحر مشهداً طبيعياً ساكناً كالجبل أو رمل الصحراء، لكنه عالم متحرك مضطرب، وحركته واضطرابه مما يثير في النفس خواطر الشعر والتأمل، وحركة ماء البحر تسمى الموج، يروى عن (يحيى بن عدي: الحركة صورة واحدة لكنها توجد في مواد كثيرة ومحال مختلفة، وبحسب ذلك تولى أسماء مختلفة، وقد يظن من أجلها أنها في نفسها ليست واحدة، وأن لها أخوات ونظائر. والبحث الفلسفي قد قرن واحدة بواحدة على ما دل الاسم عليه في الأصل، وذلك أنه يقال: الحركة كون وفساد، ونمو ونقصان، واستحالة وإمكان؛ وإنما تباينت هذه الأسماء لمعانٍ تحققت في النفس بالاعتبار الصحيح. فالحركة في النار لهب، وفي الهواء ريح، وفي الماء موج)⁽⁷⁾ فكلمة الموج هنا - وهي من لوازم البحر أكثر ما وقع في الشعر حديثاً وقديماً، وإدريس جماع نظر كغيره من الشعراء في البحر نظرة المتأمل أو الحزين أو القلق المضطرب، واتضحت هذه الحالات في وصفة للبحر في شعره، والدراسة هنا تركز على شاعرية البحر ودلالة القلق والاضطراب ودلالة الخوف.

شاعرية البحر:

تتعدد المعاني الشعرية المتصلة بدلالة البحر، وهو تعدد ينشأ من اختلاف نفوس الشعراء وأمزجتهم، واختلاف الحالات التي تنتاب الشاعر

الواحد في كل وقفة أمام امتداد الماء وشسوعه، (فقد يصف الشاعر البحر لأنه أحب منظره، أو تأثر بروعة امتداده ولكنك تحس وهو يتحدث عنه أنه يعبر بذلك عن حرية الإنسان، أو عن عمق الوجود الإنساني أو سعة التجارب الإنسانية، دون أن يصرح، في الحالين - مخبرا أو مقررا - بهذه الرابطة الوثيقة السرية بينه وبين البحر، وتكون كل حركة أو صورة أو موجة موسيقية في قصيدته صورة لذلك التطابق، وهذا التطابق قد يوحي بالتفارق أو التقابل أو التناسب أو التماثل ولكنه لا يوحي أبدا بالانفصال) (8) ويظهر لنا الرابط الوثيق بين الشاعر والبحر في كثير من قصائد المحدثين، لا سيما التي تغلب عليها الرمزية العميقة، كنشيد المدينة محمد عبد الحى:

أنا منكم. تائه عاد يغني بلسانٍ
ويصلي بلسانٍ
من بحرٍ نائباتٍ
لم تُنر في صمتها الأخضرِ أحلامُ الموانئ .
كافرٌ^١ تهتُ سنينٌ^٢ وسنيناً
مستعيرٌ^٣ لي لسانٌ^٤ وعيوناً
باحثٌ^٥ بين قصورِ الماءِ عن ساحرةِ الماءِ الغريبه
مدعنٌ^٦ للريحِ في جُمُمةِ البحرِ الرهيبة
حالمٌ^٧ فيها بأرضٍ جُعلت للغرباءِ
-تتلاشى تحت ضوءِ الشمسِ كي تولدَ من نارِ المساءِ
ببناتِ البحرِ ضاجعنَ إلهَ البحرِ في الرغوى ...
(إلى آخره مما يغني الشعراء) (9)

وينقل محمد عبد الحي هنا صورا متعددة كلها متعلقة بالبحر، بعضها مرئي وبعضها متخيل مثل إله البحر وبنات البحر.....، والتخيل هنا منشأ الشاعرية الكامنة في البحر. وقد تجد عند بعض الأدباء المحدثين تعلقا بالبحر ووصفا له يسبغ عليه سمات العظمة والمهابة، وفي هذه الحالة يصف الكاتب كل ما يتعلق بالبحر من حياة ومظاهر حضارية، كقول أحمد شوقي: (البحر الأبيض المتوسط سيد الماء، وملك الدأماء، مهد العلية القدماء؛ درجت الحكمة من لججه، وخرجت العبقرية من ثبجه، ونشأت بنات الشعر في جزره وخلجه؛ بدت الحقيقة للوجود من ييسه ومائه، وجرب ناهض الخيال جناحيه بين أرضه وسمائه؛ العلوم نزلت مهودها من ثراه، والفنون ربيت في حجال رياه، والفلسفة ترعرعت في ظله وذراه، "بنتاؤور" ولد على عبره، و"هومير" مهد بين سحره ونحره، ونحت الألياذة من صخره، و"هيرودوت" دون متونه على ظهره، و"الإسكندر" انتهى إليه بفتحه ونصره.)⁽¹⁰⁾ وكقول الصديقي (خليج البوسفور: خليجٌ كأنه سيفٌ مسلول، أو سجنجلٌ مصقولٌ وعلى شاطئيه قرى وديساكر، ورساتيقي ومقاصر، وقصورٌ بيضٌ على الخضراء، كالنجوم في السماء، أو أشعةُ فلكٍ في ماء، وكأن كل شاطئٍ منهما قد انتهت المحاسن إليه، فلا يفضل أحدهما على الآخر إلا لكونه يطل عليه، فإذا رأيت ثم رأيت حين دلك الشمس وقد شعشع نورها كل بناءٍ وغرس، وقد عكس في الماء، صور ما يحيط به من الأشياء، أبصرت في الماء قباب^١ من ذهب، وأهلةً من لهب، وكثبان^٢ من زمرد، ووديان^٣ من زبرجد، وجبال^٤ وأيفاع^٥. وحصون^٦ وقلاع^٧، وسدر^٨ ودلاع^٩ وسقوف^{١٠} من جوهر)⁽¹¹⁾

شاعرية البحر تتعلق بالجانب الفني الإبداعي الذي يقوم على مزج المشهد الطبيعي بانفعال النفس، وفي هذا الجانب يجعل الشاعر المشهد

الطبيعي ضربا من مثيرات الخيال الشعري، وباعثا لروح الشعر في نفس الشاعر، ويجعل إدريس جماع الماء صورة من صورة الحياة ومنبعاً للشعر، في قصيدته: (الشعر والحياة):

الشعرُ من نبع الحياةِ ووحيه ... من كلِّ حيٍّ زاهرٍ بوجودها
صُورُ الوجودِ خميلةٌ في شوْكها... في أغصنٍ تمتدُّ خلفَ حدودِها
والوخلُ فيها والجداولُ ثرَّةٌ ... والماءُ يجري في نضارةِ عودِها (12)

لقد مزج جماع شتى صور الطبيعة في مشهد واحد مرئي للعامة، كالخميل والشوك، لكنه جعل الماء حياة ذلك المشهد، وكلمة النبع في الأبيات الثلاثة السابقة مع كلمتي الجداول والماء، كلها توحى بأن الشاعر يغلب تأثير الماء على غيره من المشاهد الطبيعية الأخرى، أما في قصيدته (خلود الشعر)، فإنه يجعل الشاعر كالبحر الدفاق، وذلك باعتباره واحداً من مشاهد الطبيعة التي يتقمصها الشاعر، ويرى فيها انفعالات نفسه مثل حركتها الطبيعية:

كم قصورٍ قد كُنَّ سحرَ المآقي ... ورياضٍ مُخضلةٍ الأوراقِ
وملوكٍ كانوا على الأرضِ ... جبارينَ والجالسونَ في إطرارِ
وجيوشٍ تلاحمتْ والتقى ... الأبطالُ بين الإرعادِ والإبراقِ
وكؤؤوسٍ قد أترعتْ بسلافٍ ... في لقاءِ العشاقِ بالعُشاقِ
ألهمتْ كلُّ هذه شاعرَ ... الأمسِ فغنى كالزاهرِ الدفاقِ (13)

ولم يتخذ جماع البحر في البيت الأخير مظهرًا طبيعيًا فحسب، بل جعله شاعرًا^{١٤} يشاركه غناؤه وحركته الصاخبة، ونفوس الأدباء والشعراء جميعًا تنقص الطبيعة في كثير من الأشعار وصنوف الأدب الأخرى، وإلى هذه السمة الشعرية المرفهة يشير المنفلوطي في قوله: (وإن الأرض تتن بحفيف الرياح وتضج بأمواج البحر، وما بكاء السماء وأنين الأرض إلا رحمة بالإنسان، ونحن أبناء الطبيعة فلنجانها في بكائها وحنينها).⁽¹⁴⁾ تمازج جماع والبحر تمازجا تلقائيًا^{١٥} فجعل جماع من نفس الشاعر بحرًا^{١٦}، وهذه دلالة العمق والتزارة والخيال غير ذي الحدود، ودلالة الشاعرية هنا سمات البحر الذي لا يحده زمان ولا مكان، ويشبه جماعًا^{١٧} في توظيف البحر لهذه الدلالة مصطفى سند، الذي سمى ديوانه (البحر القديم)، فهو يمزج شاعريته ببعد غور البحر ومجهوليته، وما يتخيله رائى البحر من خيال بعيد وسمى إحدى قصائد الديوان (البحر القديم)، وجعل نفسه فيها بحرًا^{١٨} غير معروف البدء لا زمانا ولا مكانًا^{١٩}، ومنها قوله:

هذا أنا

بحرٌ بغيرِ سواحلٍ

بحرٌ هلاميٌّ عنيفٌ

لا بدءَ لي، لا قاعَ لي، لا عُمرَ لي

لكنني في الجوفِ ينبضُ قلبي

النَّزقُ اللَّهيفُ⁽¹⁵⁾

ويبدو هذا التمازج التلقائي بين البحر والنفس الشاعرة في نشيد (البحر)
لمحمد عبد الحي (16)

أبصر كيف مرَّ أول الطيور فوقنا،

ودار دورتين قبل أن يغيب،

في عتمة النور وفي حدائق المغيب

وكانت الشمس على المياه أمشاجًا

من الفسفور واللهيب

.....

ثم رأينا أول الهدايا، ظل وجود دون تحقيق

وأمشاج من أشنة البحر على الأجاج

والليف من بقايا الشجر الميت حيث حشرات البحر

في مرجها الأعمى

مشغولة تنقش في ظلّميتها ودون أن تهتمّا

بصور الليل تمحي صور النهار

أشكال أبجدية الحياة بين علق البحار

.....

وفي الظلام
كانت مصابيح القرى
على التلال السود والأشجار
تطفو وتدنو مرّة
ومرّة تتأى تغوص
في الضباب والبخار
تسقط مثل الثمر الناضج
في الصمت الكثيف
بين حدّ الحلم الموحش
وابتداء الانتظار.

اتخذ محمد عبد الحي البحر عنواناً لنشيدته الأول في ديوانه، فجعل منه
كوناً تنداح منه الشاعرية، ويطوف الشاعر في ذلك الكون مستصحباً
المظاهر المتحركة والأخرى الساكنة التي تتعلق بمشهد البحر.

يجعل جماع مشهد البحر موقفاً يقف عنده الشاعر، ثم يستمد شاعريته
وفنه من حركة الموج، وهو ينصت إلى صوت البحر بأذنيه، فيكون التأثير
هنا من مؤثر مسموع، وربما لا يكون مرئياً، وهو هنا أعمق خيالاً وأبعد
تصويراً، فصوت الموج عند جماع مما يؤثر في نفسه، فيجعل منه مبعثاً
للشعر، وذلك في قصيدته (من دمي):

تذهبُ الساعات من عمريَ قربانا لفني
أُتبعُ الموجةَ طرفي ولها أرهفُ أدني

ولقد أسبَحُ في النعمة من كونٍ لكونٍ (17)

ثم يجعل حركة الماء العنيفة انفعالا نفسيا عنيفا يرمز به إلى قوة انفعال
الشاعرية وتدفقها مثل ذلك الماء، ونلمح في هذه الدلالة اضطراب نفس
الشاعر، وقلة سكونها، لأن السكون عنده ينافي الانفعال الشاعري، وحركة
الماء (السيل) تمثل الخواطر الجياشة التي انبعثت من نفس الشاعر، فكانت
شعرًا:

وإذا ما زحمت نفسي شجون طاغية

وترامت كالسيول انفلتت من رابية

والتقت عارمة جياشة في هاوية

فعزيفي هو أصداء شجون عاتية (18)

وفي موضع آخر يتخذ جماع من ماء النيل ومسيره الطويل دلالة على
الحياة والعنفوان، حيث يتخذ من أثر النيل في الأرض دلالة على النفس الحية
الشاعرة، وذلك في قصيدته (رحلة النيل) (19)

النيل من نشوة الصهباء سلسله وساكنو النيل سماراً ونُدمانُ

وخفقة الموج أشجانٌ تُجاوبُها من القلوب التفاتاتٌ وأشجانُ

كل الحياة ربيعٌ مشرقٌ نَضِرٌ في جانبيه وكلُّ العمرِ ريعانُ

تدافع النيلُ من علياء ربوته يحدو ركابَ الليالي وهو عجلانُ

...

والنيلُ مندفعٌ كاللحنِ أرسلهُ من المزاميرِ إحساسٌ ووجدانُ
حتى إذا أبصرَ الخرطومَ مونقةً وخالجتُهُ اهتزازاتٌ وأشجانُ
وردد الموجُ في الشطينِ أغنيةً فيها اصطفاقٌ وآهاتٌ وجرمانُ
وعريدَ الأزرقِ الدفاقُ وامتزجا روحاً^١ كما مزج الصهباءُ نشوانُ
فالحديث عن النيل هنا يتخذ من الماء مصدراً للعيش الهانئ والغناء
والطرب والأشجان والنشوة وغير ذلك مما يؤثر في النفس فيحييها.

تطرد شاعرية البحر والماء عند المحدثين من الشعراء، ومذهب جماع
هو مذهبهم من حيث اتخاذ حركة البحر وصوته دلالة للشاعرية، وهو تشابه
نشأ من المعاصرة وأثر التطور وظهور المذاهب الأدبية الحديثة، ونقاد هذا
العصر يعلمون ذلك فيذكرونه في تحليل القصائد والنصوص الحديثة، كقول
محمد مندور: (وهذا "تسيب عريضة" صاحب "يا نفس" التي خالفني في
جمالها البعض، أعود أنصت إليه يهدد طفله في "ترنيمة سرير" حزينة
بموسيقاها المطردة:

ظلام الويل قد جنا وبوق الهم قد رنَّ
فتم يا طفل لا يهنا غنى بات شبعانا
قتام اليأس غطانا فتم لا عين ترعانا
إذا ما صبحنا حانا حسبنا الصبح أكفانا
ألا يا هم يكفيننا لقد جفت مآقينا
لو أنّ الدمع يغذونا أكلنا بعض بلوانا

أنصت، فتجيش النفس كهذا البحر الذي تتلاطم أمواجه خلف أذني "في الإسكندرية"، ومن عجب أن تثيرنا تلك الموسيقى المطردة الهادئة التي لم يدرك الطفل سواها، وقد رنحته "الترنيمة" فنام، ولكنها قدرة الشاعر كقدرة الطبيعة، أولا ترى إلى البحر كيف يزيدنا صخبه إحساسا بالصمت ما أنصتنا إليه؟ موسيقا هادئة تحرك القلب، وصخب بحر يشيع به الصمت. إنني أخشى أن يكون التناقض كامنا في الحياة والوجود... (20)

دلالة القلق والاضطراب:

حركة البحر العنيفة تؤثر في نفس الشاعر بما يراه ويسمعه من الماء المضطرب، وهو يتخذ من تلك الحركة الجياشة قلبا ونفسا وأعصاب^١، خاصة حين يكون القلق والاضطراب سمة للشاعر، وفي شعر جماع يكثر الترميز بالموج للحالة التي تتتاب الشاعر، فهو مرة للقلق ومرة للمعاناة من الحزن وغير ذلك مما ينافي السكون وقد (كان للموج حضور قوي عند شاعرنا - يعني جماع^٢ - ولعلنا لا نعدو الحق إذا قلنا إن صورته تكاد تدس أنفها في كل أفق من آفاق تجربته الشعرية، وأكبر الظن أنه رأى فيها صورة حية أو نموذجا فذ^٣ لتقلبات الحياة صعودا وهبوط^٤، رفعة^٥ وانحطاط^٦، امتداد^٧ وانحسار^٨، إذ^٩ من الطبيعي بعد ذلك كله أن تحمل صورة الموج دلالات ومعانٍ تتجاوز الصورة الساذجة لها، أعني الراسخة في ذهن كل متخيل بوصفها أحد معطيات الطبيعة . فالموج يرمز للظلم والتجبر.. (21)، ووقع وصف البحر أيضا بصفات الاضطراب والغضب في وصف شوقي للبحر الأبيض المتوسط وتفضيله على سائر البحار: (شمس متوقدة، وطبيعة متوددة، ولجة غير متمردة، وغيره من البحار ذميم الجوار، لنيم النجار؛ ضباب مخيم وسحاب مديم؛ أعاصير مرسله، وصواعق منزلة؛ زمن مضطرب الفصول، وطبيعة تختلف وتحول، كما تلون في أثوابها الغول). (22)

لقد جعل جماع ليالي الحزن كموج البحر الذي يضرب الشط، ثم يعود إلى البحر، ذلك لأن عاطفة الحزن التي كانت تسيطر عليه حين إنشاء النص، أوقعت في نفسه اضطرابا واختلاجا لم يجد له شبيها سوى موج البحر وذلك في قصيدته (لوعة متجددة في رثاء الشيخ محمد جماع):

ليالي أمواج تمر فإن دنت من الشط لاشت مدّها آهة حرّى

نوى خاطري حتى روى النفس وانقضت مباحج أيامي فألحدتها قبرا (23)

أما في قصيدته (صوت من وراء القضبان)، فإنه يجعل البحر حالة الحزن والته والذهول والحيرة التي تصيب نفسه الشاعرة، فاستخدم كلمة اللجة مستعارة للأثير المجهول الذي يعيش فيه ويرسل فيه صوته، والشبه بين الأثير والبحر في قول جماع هذا هو السشوع ودلالة المجهول، فكأن جماع¹ يرى الحياة كلها بحرا يضيع فيه، حيث جعل للأثير لُجَجًا كَلَج البحر وجعل صوته ووجوده قطرة في ذلك البحر المجهول الحد والقعر:

على الخطب المريع طويثُ صدري وبُحْتُ فلم يُفدُ صمتي وذكرى

وفي لُجَج الأثير يذوبُ صوتي كساكب قطرة في لُج بحر (24)

وكثير من شعراء العصر الحديث ذهبوا مذهب جماع في الترميز بالبحر إلى حالات الاضطراب والقلق التي تصيبهم، فمنظر البحر عند المساء أثار في خليل مطران حالة من الحزن وهو يرى الشمس تموت عند ذلك البحر (وقصيدته في وصف المساء بالإسكندرية، وهو على سيف البحر العظيم، لا تقل في تشاؤمها عن هذه القطعة، مع أنه لا يماري أحد في جمال الإسكندرية

في الصيف، ولا في منظر الشمس وهي تغيب في البحر، ولكنه يقول في الغروب:

أو ليس نزعاً للنهار وصرعة للشمس بين مآتم الأضواء؟

أو ليس طمساً لليقين ومبعثاً للشك بين غلائل الظلماء؟

أو ليس محوًا للوجود إلى مدى وإبادة لمعالم الأشياء؟ (25)

لكن خليل مطران يعود إلى مشهد البحر، ويخلو به ويشكو إليه آلامه، فيجد في البحر ما يجده في نفسه من قلق واضطراب:

مُنْقَرَّدٌ بِصَبَابَتِي مُنْقَرَّدٌ بِكَابَتِي مُنْقَرَّدٌ بَعَائِي

شاكٍ إلى البحرِ اضطرابَ خَوَاطِرِي فَيُجِيبُنِي بِرِيَاكِهِ الهَوَاجِ

ثاوٍ على صخرٍ أصمٍّ وَلَيْتَ لِي قَلْبٌ¹ كَهَذِي الصَّخْرَةِ الصَّمَاءِ

يَنْتَابُهَا مَوْجٌ كَمَوْجٍ مَكَارِهِي وَيَفْتُتُهَا كَالسَّقَمِ فِي أَعْضَائِي

وَالْبَحْرُ خَفَّاقُ الْجَوَانِبِ ضَائِقٌ كَمَدٌ¹ كَصَدْرِي سَاعَةَ الْإِمْسَاءِ

تَغْشَى الْبَرِّيَّةَ كُدْرَةٌ وَكَأَنَّهَا صَعِدَتْ إِلَى عَيْنِي مِنْ أَحْشَائِي (26)

كثير من صور اضطراب البحر المخيفة اقترنت عند جماع بالحرب والموت، فهو ينظر في الجيوش التي تبحر لغزو البلدان ثم تتقاتل ويكثر الموتى في الحرب، فتكون دلالة الاضطراب هنا صورة الموت وكثرة الجنود الذين يشبهون في حركتهم موج البحر والعنف الذي تتصف به هذه الأمواج كقصيدته (جنون الحرب)

وَأَنَابَ مَوْجُ الْحَرْبِ وَالتَّقَتِ الْجَافِلُ بِالْجَافِلِ

حتى إذا انحسر الوغى عاد الجنودُ بغيرِ طائلٍ (27)

ولا يخلو الشعر القديم من إشارة للبحر عند وصف الحرب وكثرة الجيوش، واضطراب حركتها كقول عنتره بن شداد العبسي:

ولقد لقيتُ الفُرسَ يا ابنةَ مالكٍ وجيوشُها قد ضاقتُ عنها البيدُ

وتموجُ موجَ البحرِ إلا أنها لاقتُ أسوداً فوقهنَّ حديدُ (28)

ظلت صورة الأمواج واضطرابها دالة على نفس جماع القلقة المضطربة، وربما يصحب القلق تمرداً ونفورا من الحالة النفسية التي تأسر الشاعر ويسعى للتغلب منها، وقد وجد في حركة موج النيل صحبة لانفعال نفسه، وشبها بحالته التي تحيط به فينفرد بها عن البشر، دلالة النيل - باعتباره ماءً شاسعاً مثل البحر - يشير بها جماع إلى بعد آماله واتساعها، وهي الآمال التي أفلقت نفسه وحرمتها السكون، فهو كالسيل الذي لا يهدأ ولا يستقر، وحركة موج النيل عند الجنادل دلالة على القلق والغضب والثوران :

وظل يضربُ في الصحراءِ منسرباً¹ وحوله من سُكونِ الرَّمْلِ طوفانُ

إذا الجنادلُ قامت دونَ مسربه أرغى وأزبدَ فيها وهو غضبانُ

ونشرَ الهولَ في الآفاقِ محتدماً² ... جمَّ الهياجِ كأن الماءَ بركانُ

وحولَ الصخرِ ذرّاً³ في مساربه ... فباتَ وهو على الشطينِ كُنْبانُ

عزيمةُ النيلِ تُقْنِي الصخرَ فورثها ... فكيف إن مسّه بالضيمِ إنسانُ

وانسابَ يحلمُ في وادٍ يُظللُّهُ ... نخلٌ تهدلُ في الشطينِ فينانُ

بادي المهابة شَمَّاحٌ بِمَفْرِقِهِ كأنما هو للعلياءِ عنوانُ (29)

كلمة المهابة في البيت الأخير وما يدور حولها من صفات، أوقعت دلالة أخرى هي المهابة والجبروت الذي يتسم به النيل، وعند الأدباء إشارة إلى دلالة الموج على الجبروت والمهابة لأن الموج يجرف كل شيء أمامه، فيكون الخوف، (وهدير الأمواج شعر لأنه يمثل عظمة الجبارين، وظلام الليل شعر لأنه يطلق دموع الباكين، وحفيف أوراق الأشجار شعر لأنه يمثل المناجاة في مواقف العشاق، وبكاء الحمام شعر لأنه يمثل فجعة البين ولوعة الفراق، تلك النغمات الشعرية التي نسمعها من فم الإنسان مرة وفم الطبيعة أخرى هي التي زخرت لنا هذه الحياة وألبستها ذلك الثوب الناعم الأبيض من السعادة والهناء حتى أحببناها) (30)

دلالة الماء والموج على القلق والاضطراب قديمة في الشعر، ولعل نفسية الشاعر الجاهلي امرئ القيس الكندي القلقة دليل على هذا، فالنيل المضطرب الأمواج عند جماع يشبه السيل الذي وصفه امرؤ القيس، حين ذكر أسماء الجبال والبلدان التي غمرها ذلك السيل، وهي الأبيات الأخيرة من معلقته:

على قَطَنِ بالشَّيْمِ أَيْمَنُ صَوْبِهِ وَأَيْسَرُهُ على السَّتَارِ فَيَذْبُلُ
فَأَضْحَى يَسُحُّ الماءَ حَوْلَ كُتَيْفَةٍ يَكْبُّ على الأَذْقَانِ دَوْحَ الكَنْهَبِلِ
وَمَرَّ عَلَى القَتَّانِ مِنْ نَفْيَانِهِ فَأَنْزَلَ مِنْهُ العُصْمَ من كلِّ مَنْزِلِ
وَتَيْمَاءَ لم يَتْرُكْ بها جِذْعَ نَخْلَةٍ ولا أَطْمًا إلا مَشِيدًا بِجَنْدَلِ
كَأَنَّ ثَبِيرًا في عَرَانِينِ وَبَلِّهِ كَبِيرُ أناسٍ في بجاد مُزْمَلِ
كَأَنَّ ذُرَى رَأْسِ المُجِيمِرِ غُدُوَّةٌ من السَّيْلِ والأَغْثَاءِ فَلَكَّةٌ مِغْرَلِ

وَأُلْقَى بِصَحْرَاءِ الْغَبِيطِ بَعَاةُ نَزُولَ الْيَمَانِي ذِي الْغِيَابِ الْمُحْمَلِ

كَأَنَّ مَكَائِي الْجَوَاءِ غُدِيَّةً صُبْحَنَ سُلَافًا مِنْ رَحِيقِ مُقْلَقِلِ

كَأَنَّ السَّبَاعَ فِيهِ غَرْقِي عَشِيَّةً بِأَرْجَائِهِ الْفُصُؤَى أَنْابِيشُ عُنْصُلِ (31)

ثمة تشابه بين دلالة النيل عند جماع، ودلالة السيل عند امرئ القيس الكندي، فإنهما مع إحساس القلق والاضطراب النفسي في صورة الماء، فقد كان الماء يحمل دلالة النشوة والفرح والحياة، فسلسل النيل عند جماع من الصهباء التي ينتشي شاربها، وصورة المكاكي - ضرب من الطيور - في أبيات امرئ القيس أيضا تدل على الإحساس بالفرح في صورة الماء وأثره الطبيعي على الأرض. فلم ينس الشاعران سمة الماء المتعلقة بالحياة في غمرة الاضطراب والدمار الذي يسببه السيل المندفع ومثل هذه الدلالة للماء على القلق مع الرغبة في الحياة نجدها في أبيات النابغة الذبياني في معلقته وسبب قلقه الخوف من وعيد النعمان بن المنذر، مشبها النعمان في كرمه بنهر الفرات، لكنه أطنب في وصف النهر وحركة موجه العنيفة :

فَمَا الْفَرَاتُ إِذَا جَاشَتْ غَوَارِيهُ تَرْمِي أَوْدِيَّهَ الْعَبْرَيْنِ بِالزَّيْدِ

يَمُدُّهُ كُلُّ وادٍ مُزِيدٍ لَجِبٍ فِيهِ حُطَامٌ مِنَ الْيَنْبُوتِ وَالْخَضَدِ

يَظَلُّ مِنْ خَوْفِهِ الْمَلَاخُ مُعْتَصِمًا^١ بِالْخَيْرِزَانَةِ بَعْدَ الْإَيْنِ وَالنَّجْدِ

يَوْمًا^٢ بِأَجُودَ مِنْهُ سَيِّبَ نَافِلَةٍ وَلَا يَحُولُ عَطَاءُ الْيَوْمِ دُونَ غَدِ (32)

وفي النقد الحديث إشارات إلى تأثير حركة السيل والماء في نفوس الشعراء الجاهليين، كتأثير هذه الظواهر الطبيعية في الشعراء المعاصرين، كإشارة عبد القادر القط، إلى أن الشاعر الجاهلي (يتجاوز الوقوف على

الأطلال إلى وصف مشاهد في الطبيعة شأنها أن تحرك وجدان العربي وتثير خياله، كالبرق والسيل والمطر فهو في الأغلب يرصدها من بعيد، متخذاً من البعد المكاني ذريعة للبعد النفسي حتى لا يصرح بشعوره⁽³³⁾، هذه هو المذهب النفسي الذي جمع بين امرئ القيس وإدريس جماع، إذ يتخذ عبدالقادر القط من أبيات امرئ القيس السابقة وما يشابهها من أقوال الجاهليين نماذج لذلك الأثر النفسي .

دلالة الخوف والمجهول:

كان البحر مقترنا بكثير من قصص القرآن، ومنها ما كان دلالاته فيها الخوف والمجهول، كدلالاته في قصة فرار بني إسرائيل من بطش فرعون {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ أَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ} ⁽³⁴⁾، وفي آية سورة الإسراء {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا} ⁽³⁵⁾ يظهر خوف الإنسان من البحر وأهواله، ومظنة الموت والهلاك فيه، لأنه ليس المكان المألوف لعيش البشر، إنما يمرون فوقه مروراً اضطرارياً، وفي قصة الطوفان، كان البحر والماء من أدلة الهلاك، في قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ} * وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ * وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا

لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * }⁽³⁶⁾ وكان البر مظنة النجاة، قيل في قصة الطوفان (إن الله عز وجل أرسل الطوفان لثلاث عشرة خلت من آب، وإن نوحا أقام في الفلك إلى أن غاض الماء، واستوت الفلك على جبل الجودي بقردي، في اليوم السابع عشر من الشهر السادس فلما خرج نوح منها اتخذ بناحية قردي من أرض الجزيرة موضعا، وابتنى هناك قرية سماها ثمانين، لأنه كان بنى فيها بيتا لكل إنسان ممن آمن معه وهم ثمانون، فهي إلى اليوم تسمى سوق ثمانين).⁽³⁷⁾

طبيعة البشر أن يكونوا في البر، أما البحر فإنه مما لا يألفه الطبع البشري، لذلك يشعر الإنسان - إذا ركب البحر - بالخوف والاضطراب، لاتساع مساحة الماء حوله وبعد أفقه حتى أنه لا يرى بر^١ حين يبلغ وسط البحر (إن الإحساس بالرهبة والخوف من البحر شعور عام ومفهوم مطرد، وإن ارتباط البحر بالظلمة وبسمة المجهول قد استقر في روع الكثيرين، فهو مستقر الأهوال والخوف والرعب، إلى جانب احتوائه على الخير والآمال،..... هذه الرهبة تتصل بأواجه المتلاطمة المضطربة، وبتلك الظلمة الكامنة في أغواره..)⁽³⁸⁾ وفي الشعر القديم من نظر في البحر فاقترن عنده بالخوف، انظر قول الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد البكري، يشبه الطعائن بالسفن ثم يصف ماء البحر وجهه الملاح:⁽³⁹⁾

كَأَنَّ حُدُوجَ الْمَالِكِيَّةِ غُدُوَّةٌ خَلَايا سَفِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِنْ دَدٍ
عَدُولِيَّةٌ أَوْ مِنْ سَفِينٍ ابْنِ يَامِنٍ يَجُورُ بِهَا الْمَلَّاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي
يَشُقُّ حَبَابَ الْمَاءِ حَيْزُومُهَا بِهَا كَمَا قَسَمَ التُّرْبَ الْمُفَايِلُ بِالْيَدِ

وقد بث ابن حمديس الأندلسي ما في نفسه من رهبة البحر، وعدم ألفتة إياه في أسلوب بديع حين قال:

لا أركبُ البحرَ، أخشى عليَّ منه المعاطبُ!

طينٌ أنا وهو ماءٌ، والطينُ في الماءِ ذائبٌ. (40)

ودلالة البحر على المجهول تظهر أيضا في شعر عبد الله الطيب في غربته، إذ يحن للنيل، لكنه ينظر في المسافات التي تفصله عن النيل، فيرى بحرا واسعا لا حدَّ له:

لقد ملأ الكونَ الربيعُ ولم يزلْ شتاءُ فؤادي ليْلُهُ مُتْرَاكِمُ

وقد لبسَ الأرباءُ بالروضِ سندسَ وشائعَ ثغرِ الزهرِ منهنِ باسمُ

وغنت على الدوحِ البلابلُ سُحْرَةً فجاءَ بهنَّ بالغداةِ الحمامُ

ولكنني ناءٍ غريبٌ وشُقَّتِي بعيدٌ ودونَ النيلِ بحرٌ خُضَارِمُ (41)

وتظهر دلالة البحر على الخوف والمجهول أيضا في البيت المشهور من معلقة امرئ القيس:

وليلٍ كموجِ البحرِ أرخى سُدُولُهُ عليَّ بأنواعِ الهمومِ ليبتلي (42)

يتشابه القدماء والمحدثون في دلالة البحر على المجهول والخوف والتهيه والغربة، فهذا مصطفى سند يجعل التائهين عائدين من بحر مجهول، وهذا البحر رمز للسفر الطويل الذي مضى فيه هؤلاء التائهون فيقول في قصيدته عودة أوكتا:

في الصبحِ حين يرجعُ المهاجرونُ

من آخرِ البحارِ فجأةً يسافرونُ

لأن لعنةَ الغجرِ

منقوشة على عيونهم

لأنَّ في قلوبهم سحابة الضَّجَر (43)

لعنة الغجر المتجولين تجسدت عند سند بصورة البحر المجهول
الأصل والحد والبداية والنهاية، وتجسدت مجهولية المصير عند جماع في
صورة البحر، والمجهول والخوف الذي يحتمله البحر عند جماع يتمثل في
حالة الخوف التي حولت البحر إلى ساحة للقتال والدماء، فهو قد شهد
السفن الحربية تحمل رسل الموت والدمار، فيقتل الناس بعضهم بعضا في
عرض البحر، ويكون الموج قبورهم، ففي قصيدته (مقبرة في البحر)، يجعل
قطرات الماء في الموج حاملة قطرات دم الضحايا:

إن تسلَّ كلَّ موجةٍ تلقَ فيها قطرةً من دم الضحايا تمرُّ

مازجت ماءً فهل يظمأ البحر لنهل الدماء وهو البحر

تحت صرحٍ من الدخانِ عراكٌ وانفجارٌ عاتي الدويّ وذعرٌ

إنها قطعةٌ تُجاوبُ أخرى لغةً لفظها حديدٌ وجمرٌ

رقصت رقصةً الذبيح من الطير ومادت كأن نجمًا يخرُّ

في الخضمِّ العميق تدفنُ صرعاها فهم في سريرة الماء سرُّ

ومألُ الغريقِ إما مماتٌ أو نجاةٌ وفي النجاة الأسرُ

كيف يبغي النجاة من قبضة البحر وفي كل موجةٍ منه قبرٌ

طمعٌ أشعل البحارَ وعانى حرقًا من لظاه جوٌّ وبحرٌ

راكبُ البحرِ خافقُ القلبِ باتتْ بينَ جنبيهِ لوعةٌ تستقرُّ

...

ونسورٌ تشقُّ ألويةَ السُحبِ بعزمٍ يحارُ فيه النَّسرُ

سجدَ البحرُ خاشعٌ^١ تحتَ رجليها كقديسٍ احتواه الدَّيرُ

غاصتِ الناسُ لا لدُرٍّ - لأغلى من دماءِ الصريعِ وهو النصرُ

وقف الحوتُ عندهم مستطارٌ^٢ شاردَ اللَّبِّ لا يواتيه فكرٌ⁽⁴⁴⁾

اطَّرد عند المحدثين من الشعراء أن يبنوا خوفهم في الشعر في هيئة بحر هائج كما فعل جماع حين ربط هيجان البحر ورهبته بمشهد الموت أو خشية الموت، وقد ذكر إحسان عباس هذه السمة في شعر سلمى الخضرا الجيوشي بقوله : (وتضيف الشاعرة تجربة أخرى حين تستغل صور السفينة أو المركب، وما يتعلق بهما من شرار وقلع ومجذاف (صور تتردد عند فدوى أيضا) لتعبر بالسفينة الغارقة عن الموت المنقذ، من حياة تحول فيها الحب عن طبيعته السمة:

تغوص سفينتي في البحر، تغرق لا أنجِّيها

صقيع الليل، يا ويلي، يكس ثلجه فيها⁽⁴⁵⁾

وفي قصيدة (مآسي الحرب)، يقرن جماع مظهر السفن (الجواري) بالحرب والموت والخوف، فهن مع جمال مظهرن صِرْنَ حبيساتٍ للبحر حين أصابتهم ألغام الحرب:

والجواري يسبحن في روعةِ اليمِّ يُبْدِينَ مظهرٌ^٣ سحرًا

تركنتها الألغامُ في البحرِ أشلاءَ ترى الماءَ بكرةً وعَشِيًّا (46)

هناك مظهر آخر من مظاهر الخوف المتعلق بمشهد البحر، والمقاتلون على سطحه بسفنهم الغازية، لكنه هنا خوف الأعداء لا خوف الشاعر، وفي كلا الحالتين فإن نفس الشاعر ونفس عدوه تعدان البحر مصدرا للخوف والحذر والمجهول، لأن دلالة الخوف هنا تقع على النفس البشرية عامة، ولعل الشاعر أسقط خوفه ورهبته من البحر على نفوس أعدائه، حين وصف سفن المسلمين وهي تجتاز المضيق إلى إسبانيا قديما، تحمل جيش طارق بن زياد، ففصل وصف البحر وما يحمله من نذير لأولئك الأعداء، أو أهل الأرض المغزوة، والبحر هنا يفصل بين أرضين مختلفتي الدين والثقافة واللغة، فيكون المجهول في هذه الحالة هو ما يحجبه البحر وراءه من اختلاف هذه الأمم التي يفصل بينها، صَوَّر جماع مشهد الخوف هذا في قصيدته (الشرق يتذكر) وأعقبها بعبارة، ملحمة للمد العربي 1943م

من مغاني أرض الجزيرة هبَّتْ يَفْظَةُ الْفَكْرِ بَعْدَ طَوْلِ احْتِجَابِ

وَدَعَتْ مَكَّةَ النَّهَارَ وَسَلَّتْ مَوْجَةَ اللَّيْلِ مِنْ أَعَالِي الشُّعَابِ (47)

لَسْتُ أَهْتَرُّ لِلْفَتْحِ فَقَدْ يَرْجِعُ غَايِرٌ بِالْحَقْدِ وَالْأَسْلَابِ

غير أن الإسبان في جبرة القوط وهتك الأعراض والأغصاب (48)

لم يروا جيش طارق رمز طغيان إذا مس طهر ذاك التراب

لم يكن لودريق يسمو عن الجور وفرط المجون والارتكاب

أين عهد الشعوب من حاكم يبسط سلطانه رهيب الجناح

جَنَّةٌ غَضَّةٌ تَراهم وما كانَ لهم منه غيرَ وطءِ الترابِ
وبإفريقيا فتى تتعالى نفسه أن تَقَرَّ فوقَ السحابِ
وقفت دون حُلْمِهِ رهبةُ البحرِ وجيشٌ مدَجَجٌ في ارتقابِ
فرمى البحرَ بالسفينِ وشقَّ اليمَّ في موكبِ عظيمِ مهابِ
حلَّقَ النصرُ فوقَهُ ومشى الموتُ حوالِيهِ بارِزَ الأنِيابِ
همستُ كلَّ موجَةٍ تسألُ الأخرى وترمي بنظرةِ استغرابِ
فترى الجيشَ مُبحِرًا^١ والجواري يتحدَّرنَ في ممرِّ العُبابِ
وترى الحوتَ إذ يمرُّ حوالِيها مرورَ المُجانِبِ الهَيابِ⁽⁴⁹⁾

كثر التعبير بالبحر والموج عن الحرب والثورة عند جماع، فهو بعد أن اتخذ من البحر مضمارا يرهبه العدو، عاد فجعل الموج دلالة على قوة الشعوب وثوراتها على الظلم، ولا شك أن قوة اندفاع الموج أوحى إلى جماع بهذه الصورة التي يصف بها الجماهير الثائرة، حتى جعل عنوان القصيدة (هذه الموجة)، مشيرا إلى دلالة الموجة على ثورة الشعوب بقوله : (نتساح دائم^١ موجة التحرر إلى أبعد حدّ)

هذه الموجة من هذا الخِضَمِ فيضاً زاخراً بين الأمم
ومن الموجة فاضت لُجَّةٌ تكسحُ الذلَّ وتجتأحُ الرِّمَمِ
بين صيحاتٍ تعالت مثلما يقذفُ البركانُ أشلاءَ الحِمَمِ
والتقى التيارُ وساح كما⁽⁵⁰⁾ تحضنُ العالمَ أمواه الخِضَمِ⁽⁵¹⁾

وصورة السيل باعتباره ماحي^١ للفساد موجودة في القرآن الكريم، ففي سورة سبأ مثل لفعل السيل في الأرض، مقترنا بالخراب وذلك في قوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ} (52) وصورة السيل في هاتين الآيتين صورة القوة المنتقمة، وهي الصورة التي تخيلها جماع حين جعل ثوران الماء قوةً تحارب الظلم وتمضي لاقتلاعه وإزالته، وذلك حين يصف ثورة الشعوب على ظالميها، وقد كررها في قصيدة (نضال لا ينتهي): من وحي الذكرى الأولى لعيد الحرية:

بعدَ موجٍ لا يُحييه السَّنا أدركَ الزورقُ شُطآنَ المُنَى

ومن الشُّطآنِ هبَّتْ نسمةٌ وإلى حُرِّيَّةٍ أَفْضَتْ بِنَا (53)

الخاتمة:

خلصت الدراسة إلى أن إدريس جماع وظف البحر والماء توظيفا أدبيا يشابه غيره من شعراء العصر الحديث، فللبحر في شعره دلالة الشاعرية التي يبعثها مشهد البحر في النفس، ودلالة الخوف والمجهول ودلالة القلق والاضطراب، وظهر الترميز بالبحر عنده باستقراء شعره والنظر في الأبيات التي ذكر فيها البحر وما يلازمه من صفات وألفاظ مثل الموج، وقد كثر استخدام هذا اللفظ عند جماع في الدلالة على القلق والاضطراب، وهذا أمر يناسب البيئة النفسية التي كان يعيش فيها الشاعر، لقد عبر جماع عن هذه البيئة النفسية القلقة المضطربة باتخاذ صفات البحر المشابهة لنفسه مادةً للشعر والمعاني التي يريد بها.

الحوامش:

- 1- الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدينوري، دار الحديث، القاهرة، 1423هـ، ج1، ص 80
- 2- صفة البحر في الشعر العربي، رسالة دكتوراه، إعداد/ أمل الشعراني، كلية الآداب، جامعة الخرطوم، 1996م، الصفحة ح من مقدمة الرسالة
- 3- عيون الأخبار، ابن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ، ج1، ص 222
- 4- المصدر نفسه، ج1، ص 461
- 5- 1- توظيف المكان في الشعر الفلسطيني المعاصر خالدراضي خليفة، دار النابغة للنشر والتوزيع، ط1، 2014م، ص 34
- 6- اتجاهات الشعر العربي المعاصر، إحسان عباس، المجلس القومي للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط1، 1978م، ص 249
- 7- المقابسات، أبو حيان التوحيدي، ت: حسن السندوبي، دار سعاد الصباح، ط2، 1992م، ص 225
- 8- اتجاهات الشعر العربي المعاصر، ص 203
- 9- العودة إلى سنار، شعر محمد عبد الحي، مدارات للطباعة والنشر والتوزيع، الخرطوم، 2010م، ص 16
- 10- أسواق الذهب، أحمد شوقي، مطبعة الهلال، مصر، 1932م، ص 91
- 11- اللؤلؤ في الأدب، محمد توفيق الصديقي، ط1، 1927م، ص 28
- 12- ديوان لحظات باقية، دار الفكر، الخرطوم، ط4، 1989م، ص 61
- 13- نفسه، ص 67
- 14- النظرات، مصطفى لطفي المنفلوطي، دار الآفاق الجديدة، ط1، 1982م، ج1، ص 100
- 15- البحر القديم، شعر مصطفى سند، دار عزة، الخرطوم، 2004م، ص 14
- 16- العودة إلى سنار، شعر محمد عبد الحي، ص 6-7-8
- 17- ديوان لحظات باقية، ص 17
- 18- لحظات باقية، ص 18
- 19- نفسه، ص 39-40-41
- 20- في الميزان الجديد، محمد مندور، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 2004م ص 69-70
- 21- الصورة في شعر إدريس جماع، (أنواعها، أدواتها، مصادرها)، محمد محبوب محمد عبد المجيد، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة قناة السويس، العدد3، يناير 2011م، ص 456
- 22- أسواق الذهب، ص 94
- 23- لحظات باقية، ص 82
- 24- نفسه، ص 86
- 25- في الأدب الحديث، عمر الدسوقي، دار الفكر العربي، 2000م، ج2، ص 180

- 26 ديوان خليل مطران، مطبعة المعارف، الفجالة، مصر، ب.ت، ص 120-121
- 27 لحظات باقية، ص 36
- 28 ديوان عنتر، مطبعة الآداب، أمين الخوري، بيروت، 1893م ص 33
- 29 لحظات باقية، ص 40-41
- 30 النظرات، مصطفى لطفي المنفلوطي، ج2، ص 200-201
- 31 ديوان امرئ القيس الكندي، اعتنى به، عبدالرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط2، 2004م، ص 65-69
- 32 شرح القصائد العشر، التبريزي، (يحيى بن علي)، الطباعة المنيرية، 1352هـ، ص 320-321
- 33 مؤسسة جائزة سعود البابطين للإبداع الشعري، الدورة الثالثة، دورة البارودي، 12-14 ديسمبر 1992م، مقالات، ص 294
- 34 من سورة يونس، الآية 90
- 35 الإسراء، الآية 67
- 36 الآيات من سورة هود
- 37 تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري، دار التراث، بيروت، ط2، 1387هـ، ج1، ص 189
- 38 صفة البحر في الشعر العربي، أمل الشعراني مصطفى، ص 35
- 39 شرح القصائد العشر، ص 57
- 40 نهاية الأرب، في فنون الأدب، شهاب الدين النويري، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط1423، 1هـ، ج، ص 255
- 41 ديوان أصداء النيل، من شعر عبدالله الطيب، الدار السودانية للكتب، ط3، 1969م، ص 33
- 42 شرح القصائد العشر، ص 35
- 43 البحر القديم، ص 44
- 44 لحظات باقية، ص 89-90
- 45 اتجاهات الشعر العربي المعاصر، إحسان عباس، ص 198
- 46 لحظات باقية، ص 91
- 47 نفسه، ص 68
- 48 هكذا في طبعة الديوان، وأظنها الاغتصاب
- 49 لحظات باقية، ص 71
- 50 صدر البيت مختل الوزن، والراجح أنه وقع خطأ في نسخه من الأصل، ولعلها: والتقى التيار أو ساح كما....
- 51 لحظات باقية، ص 22
- 52 سورة سبأ، الآيتان: 15-16
- 53 نفسه، ص 32

المصادر والمراجع:

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: الكتب:

- 1- التبريزي، (يحيى بن علي)، شرح القصائد العشر، الطباعة المنيرية، 1352هـ
- 2- التوحيدي أبو حيان، المقابسات،، ت: حسن السندوبي، دار سعاد الصباح، ط2، 1992م
- 3- خليفة، خالد راضي توظيف المكان في الشعر الفلسطيني المعاصر، دار النابغة للنشر، ط1، 2014م
- 4- الدسوقي، عمر في الأدب الحديث،، دار الفكر العربي، 2000م
- 5- الدينوري ابن قتيبة، الشعر والشعراء،، دار الحديث، القاهرة، 1423هـ،
- 6- الدينوري، ابن قتيبة عيون الأخبار،، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ
- 7- شوقي، أحمد أسواق الذهب،، مطبعة الهلال، مصر، 1932م
- 8- الصديقي، محمد توفيق، اللؤلؤ في الأدب،، ط1، 1927م
- 9- الطبري، محمد بن جرير تاريخ الرسل والملوك، دار التراث، بيروت، ط2، 1387هـ
- 10- عباس، إحسان اتجاهات الشعر العربي المعاصر، المجلس القومي للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط1، 1978م
- 11- مندور، محمد في الميزان الجديد،، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 2004م-
- 12- المنفلوطي، مصطفى لطفی النظرات،، دار الآفاق الجديدة، ط1، 1982م

- 13- النويري، شهاب الدين نهاية الأرب، في فنون الأدب،، دار الكتب
والوثائق القومية، القاهرة، ط1423، 1هـ

دواوين الشعر:

1. الطيب، عبدالله ديوان أصداء النيل، من،الدار السودانية للكتب،
ط3، 1969م
2. القيس ديوان امرئ الكندي، اعتنى به، عبدالرحمن المصطاوي، دار
المعرفة، بيروت، ط2، 2014م
3. سند، مصطفى ديوان البحر القديم، شعر، دار عزة، الخرطوم،
2004م
4. مطران، خليل ديوان، مطبعة المعارف، الفجالة، مصر، ب.ت
5. عنتر، ديوان، مطبعة الآداب، أمين الخوري، بيروت، 1893م
6. عبد الحي، محمد، العودة إلى سنار، شعر مدارات للطباعة والنشر
والتوزيع، الخرطوم، 2010م
7. جماع، إدريس ديوان لحظات باقية، شعر، دار الفكر، الخرطوم،
ط4، 1989م

الرسائل الجامعية:

1. شعراني، أمل، صفة البحر في الشعر العربي، رسالة دكتوراه، كلية
الآداب، جامعة الخرطوم، 1996م
2. عبد المجيد، محمد محبوب محمد، الصورة في شعر إدريس جماع،
(أنواعها، أدواتها، مصادرها)،، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية،
جامعة قناة السويس، العدد3، يناير 2011م